

تصوير القدس في الحرب: صور من سنة 1948*

عصام نصار**

كانت القدس، قبل تقسيمها سنة 1948، مدينة عصرية ذات دور مهم في حياة فلسطين السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ويعود هذا لا إلى كون عملية الحداثة التي كانت بدأت في القرن التاسع عشر قد أثمرت في حينها فحسب، بل أيضاً إلى واقع أن الانتقال من الحكم العثماني إلى الحكم البريطاني وفر للمدينة نمواً وتقدماً كبيرين. إذ تطور وضع القدس في عهد الانتداب البريطاني، فلم تعد مدينة ثانوية داخل إمبراطورية مترامية الأطراف كما كان عليه الحال في زمن الدولة العثمانية، وإنما أصبحت المدينة الرئيسية في إقليم اكتسب أهمية خاصة في نظر القوى العظمى آنذاك، على الرغم من كونه أصغر كثيراً من الإمبراطورية التي كان جزءاً منها. وقد بدأ المواطن يشاهد نمو طرقات وأبنية حديثة، بالإضافة إلى معالم الحداثة الأخرى، ومنها محطة سكة الحديد التي شيدت سنة 1882 إلى الجنوب من القدس، والمطار الذي أنشأه البريطانيون في إبان فترة حكمهم إلى الشمال من المدينة.

كانت المنطقة الممتدة بين باب الخليل (وهو إحدى البوابات الرئيسية للبلدة القديمة) من الخارج وبين المستشفى الفرنسي على الجانب الآخر من الباب الجديد (وهو أحدث بوابات البلدة القديمة، وقد افتتح فقط سنة 1887 في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ليصل البلدة القديمة بالأحياء الجديدة التي نشأت خارج الأسوار من الجهة الشمالية)، أحد الأسواق الجديدة النشيطة التي كانت تنشأ في أنحاء متعددة من المدينة. في هذا المكان بالذات، أسس المصورون الفوتوغرافيون المقدسيون الأوائل أول الأستوديوهات الفوتوغرافية في فلسطين. وأصبحت المنطقة، إلى حد ما، سوق القدس الفوتوغرافي. وكما كان للمدينة أسواق للتوابل واللحم والجلود، فإن الامتداد خارج السور بين باب الخليل والباب الجديد للبلدة القديمة، أصبح مقصداً للأهالي الراغبين

* المصدر: *Jerusalem Quarterly File*, no. 14 (Autumn 2001), pp. 5-22.

وستظهر هذه المقالة في الطبعة الجديدة المنقحة لكتاب:

Jerusalem 1948: The Arab Neighbourhoods and their Fate in the War, edited by Salim Tamari (Jerusalem: The Institute of Jerusalem Studies & Badil, 2002).

كما ستظهر في الترجمة العربية لهذا الكتاب: "القدس 1948: الأحياء العربية ومصيرها في حرب 1948"، تحرير سليم تماري (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية: القدس: بديل، 2002).

** مدير مشارك، مؤسسة الدراسات المقدسية (القدس)، ورئيس التحرير المشارك لمجلة *JQF* وعضو مجلسها الاستشاري.

في شراء الصور الفوتوغرافية، أو في التقاط صور لهم.

ارتبطت بداية "السوق الفوتوغرافي" هذا باسم المصور الأرمني الشاب كرابيد كريكوريان الذي افتتح، في سنة 1885، أول ستوديو فوتوغرافي في شارع يافا في القدس خارج باب الخليل مباشرة، وذلك بعد تعلّمه الحرفة الجديدة في المشغل الفوتوغرافي الذي أسسه البطريرك ياساي غرابديان داخل الحي الأرمني. وفي الوقت الذي افتتح كريكوريان محترفه، كانت ساحة باب الخليل بمثابة "محطة القدس المركزية"، إن جاز التعبير؛ فهي لم تكن فقط موقعاً يكتظ بالعربات التي تجرها الجياد، وبالحافلات، وبالمسافرين الوافدين من القرى القريبة ومن يافا وبيت لحم، بل كانت أيضاً موقع الفندق الرئيسي - إن لم يكن الوحيد في القدس آنذاك - وهو "أوتيل فاست"، إضافة إلى مكتب سفريات توماس كوك (وكانت مكاتب كوك آنذاك تشكل أهم وسائل النقل السياحي في العالم). وعلى الرغم من عدم تيقننا من الأسباب التي دعت كريكوريان إلى اختيار موقع محترفه، فإنه يمكن الافتراض أنها ارتبطت بكون الموقع المحطة السياحية الرئيسية في المدينة، وبالتالي فإن بيع صور الأراضي المقدسة المطلوبة دوماً في الغرب سيكون أكثر جدياً في هذا الموقع منه في أي موقع آخر في المدينة. مع ذلك، وبصرف النظر عن أسباب اختيار كريكوريان لهذا الموقع، كان محترفه الأول بين عدد من محترفات التصوير الفوتوغرافي التي افتتحت في ذلك الحي تحديداً. وقد تبع كريكوريان في ذلك خليل رعد، تلميذه ومساعدته، الذي افتتح مشغله الخاص سنة 1890، مباشرة عبر الطريق من ستوديو معلمه.

بحلول الأربعينات من القرن العشرين كان هناك عدة ستوديوهات في القدس وكثيرون من المصورين الفوتوغرافيين الذين عملوا فيها، أو نصبوا آلاتهم التصويرية في المنطقة أو في الأسواق الكثيرة في المدينة. ومن أهم المصورين الفوتوغرافيين المعروفين آنذاك، كان أوهانس كريكوريان (وهو ابن المصور كرابيد كريكوريان)، وخليل رعد، وحنا صافية، وعلي زعرور، وسمعان السحار، وستوديوهات إيليا وديانا، ومصورو الكولونية الأميركية. كذلك عمل عدد من المصورين اليهود في القدس وقدم خدماته إلى الجاليتين العربية واليهودية في المدينة.

في ضوء ازدهار الحركة الفوتوغرافية في المدينة، يبدو مذهباً - وهذا أقل ما يقال - أن المصورين العرب والأرمن أغفلوا ضرورة التقاط صور للأحداث التي كانت تتمخض من حولهم سنة 1948. ويكمن وراء هذا النقص في توثيق النكبة، كما نعتقد، عدد من العوامل المتصلة بخسارة الضواحي العربية بعد سقوطها وتقسيم المدينة. فقد تحولت المنطقة الفوتوغرافية في المدينة، والتي أشرنا إليها، إلى خط حدودي فاصل. ولم يعد ممكناً لرعد والسحار الوصول إلى مشغليهما، إذ اضطررا إلى الانكفاء داخل البلدة القديمة حفاظاً على سلامتهما. كذلك الأمر بالنسبة إلى مشغل حنا صافية في

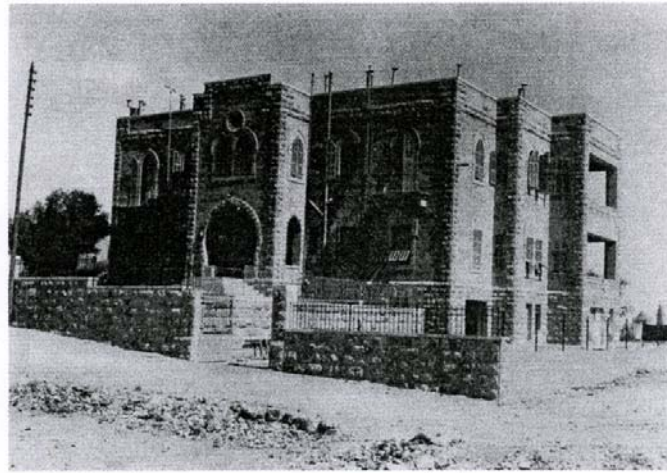
شارع يافا الواقع تحت السيطرة الإسرائيلية، إذ لم يستطع صافية نفسه جلب مجموعته إلى القسم العربي من المدينة. في المقابل، فإن المراكز التجارية اليهودية في المدينة، والتي كانت أغلبيتها في الجزء الغربي، حيث يقع معظم المؤسسات الفوتوغرافية اليهودية، بقيت سالمة وأصبحت تحت سيطرة الدولة اليهودية حديثة النشأة.

وهكذا، وبما أن المصورين الفوتوغرافيين العرب والأرمن فقدوا القدرة على الوصول إلى مراكز رزقهم وعملهم، فقد بقي التسجيل للأحداث المحيطة بسقوط المدينة محصوراً بيد المصورين الإسرائيليين. لذا فإن إعادة تمثيل الأحداث المحيطة بسقوط الضواحي العربية سنة 1948 من وجهة نظر فلسطينية، بالاستناد إلى المحفوظات الفوتوغرافية الإسرائيلية، هي أمر في غاية الصعوبة. فبالإضافة إلى عدد من الإشكاليات الأخرى، نجد أن معظم ما صوره المصورون الإسرائيليون كان صوراً لمواقع مفرغة من سكانها الأصليين. أي أن الصور التقطت بعد تهجير السكان العرب، أو فرارهم. والمشكلة الأخرى تكمن في طبيعة التمثيل التصويري ذاته. فالصور عامة وبالضرورة تلتقط ما تراه عدسة الكاميرا، وما تراه هذه العدسة يعكس ما يراه من يقف خلفها. فالمصور الإسرائيلي رأى الأمور وصور الأحداث من زاوية واحدة فقط؛ الزاوية التي كان هو فيها، وهي زاوية المحارب الصهيوني لا زاوية الفلسطيني المشرد. فهو رأى الأمور بعين المراقب الخارجي للمشهد الفلسطيني الذي كان أمام عينيه، لا بعين المشارك الداخلي فيه؛ وهو بذلك قد عكس ما يراه طرف واحد في الصراع بشأن المدينة آنذاك.

نهدف من عرض الصور الفوتوغرافية المنشورة هنا، لا عرض مشاهد من الحرب فقط، بل أيضاً توضيح الخسارة التي تكبدها الفلسطينيون في القدس. وبما أن العدد الكثير منها التقطه مصورون إسرائيليون للمواقع "بعد الحدث"، كما هو الحال، فقد بقيت تجربة التشرد الفلسطينية خارج إطار الصورة. ومع ذلك، يمكن استخلاص أن هذه الصور تمثل شهادة درامية على تجربة التشرد. فمجرد رؤية المحيط أو "العالم" الفلسطيني بشوارعه وأبنيته التي في بعض الأحيان ذات عمر يعد بالقرون، والأثاث المتروك، من دون رؤية السكان، هي التعبير الدقيق عن عملية استعمار الجزء الغربي من القدس. وصورتا عين كارم - الوارديتان في هذا المقال - تمثلان هذا الحدث بطريقة صارخة. فنجد، في إحدهما، نبع القرية ومهاجرين يهوداً من ذوي السحنة الشرقية يملأون دلاءهم ماء. لقد وصل المهاجرون إلى القرية للتو، والدلاء الجديدة التي يستعملونها - وهي تحمل شعار الدولة الحديثة - تقدم الدليل على ذلك. لكن النبع نفسه الذي يتزودون الماء منه، وهو أقدم كثيراً من الدلاء التي يحملونها ومن الدولة التي دمغت شعارها عليها، يشكل شهادة على حياة وتاريخ سابقين لما يظهر في الصورة. إن سكان عين كارم المطرودين والمغيبين من إطار الصورة موجودون على

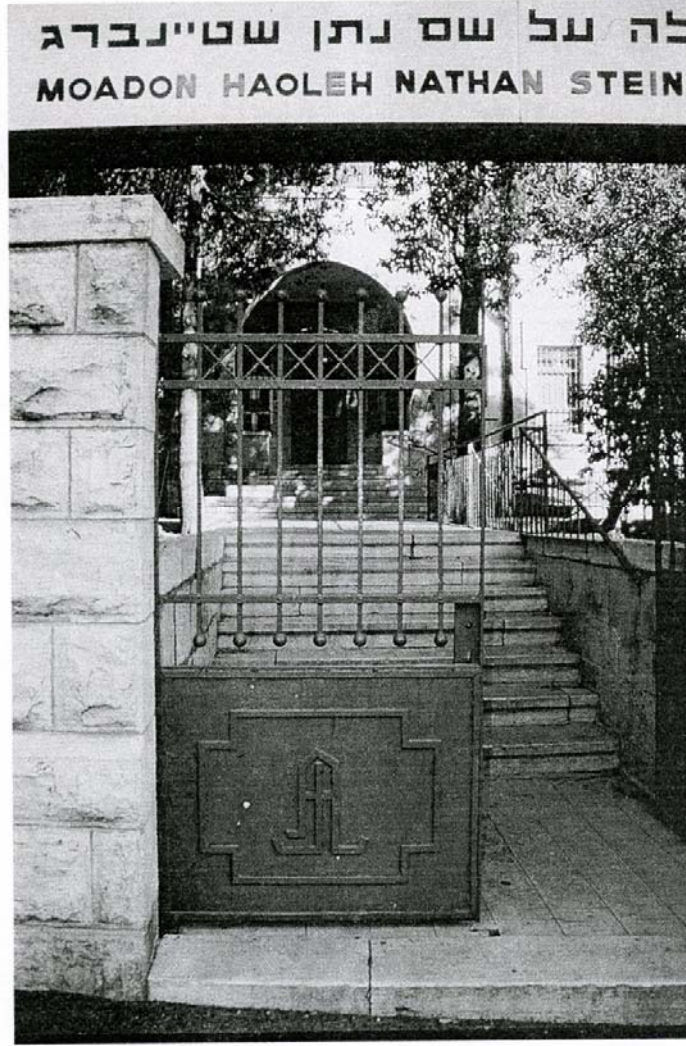
الرغم من ذلك في صلب الحدث في الصورة، وهم باقون هكذا في مركز موضوع الصورة ما دام النبع نفسه قائماً. إن المقارنة، لأي شخص مطلع على تاريخ المكان، بين المنازل التي عمرها قرون، والشوارع، والنبع، وبساتين الزيتون، وبين المهاجرين اليهود الوافدين حديثاً ذوي السمات التي توحى بأنهم يهود شرققيون، هي أولاً وبصورة رئيسية إشارة ضمنية صارخة إلى عملية تحويل الملكية وطرد السكان التي تعرضت لها المدينة. وبهذا المعنى فإن غياب الفلسطينيين أنفسهم من الصور هو بحد ذاته إشارة ضمنية إلى إقامتهم الدائمة في الصور كافة.

يشبه أصحاب المنازل في الصور الأحدث الصغير في الأغنية الشعبية الألمانية التي علّق ذات مرة عليها والتر بنيامين بقوله: "هذا الرجل الصغير موجود في المنزل [لكن] بطريقة مموهة." وعندما يحاول القاطن في المنزل الحالي الخلود إلى النوم، كما تقول الأغنية، تواجهه الحقيقة المخيفة أن هذا الإنسان غير المرئي حاضر فيه.⁽¹⁾



منزل عائلة جمال في الطالبية، أوائل أربعينات القرن العشرين.
(المصور خليل رعد. إعادة تصوير من كتاب وليد الخالدي، "قبل الشتات: التاريخ المصور للشعب الفلسطيني 1876 - 1948". بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1987).

(1) Walter Benjamin, *Illuminations*, edited with an introduction by Hannah Arendt (New York: Schunken Books, 1967), p. 134.



منزل عائلة جمال في الطالبية، سنة 1998. الطبقة الأرضية الآن هي ناد للمهاجرين اليهود الجدد، والطبقة العلوية مع الساحة الخلفية مسكن خاص. لاحظ أسفل بوابة الحديد حيث تصميم "جمال" باللغة الإنكليزية.
(تصوير روشيل ديفيس)



مدرعات تابعة للبالماخ في تلال القدس، تشرين الأول/أكتوبر 1948.
(المصور غير معروف. مكتب الصحافة التابع للحكومة الإسرائيلية)



ثوار من الجهاد المقدس يتوسطهم عبد القادر الحسيني، مرتدياً السترة فاتحة اللون، سنة 1948.
(المصور حنا صافية. مجموعة جمعية الدراسات العربية)



مهاجرون يهود جدد يملأون دلاءهم ماء من العين في قرية عين كارم، 1 حزيران/يونيو 1949.
(المصور غير معروف. مكتب الصحافة التابع للحكومة الإسرائيلية)



أفراد من القوات الإسرائيلية قرب قرية عين كارم، ينقلون على ما يبدو أنه أثاث، وذلك بعد ثلاثة أشهر فقط من سقوط القرية وطرد سكانها العرب، 1 تشرين الأول/أكتوبر 1948.
(المصور غير معروف. مكتب الصحافة التابع للحكومة الإسرائيلية)

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>